تحالف غير محتمل!

03-9-2003

قد تحصل واشنطن على مساعدة طهران في تحجيم السنة، و تحصل الولايات المتحدة على وعد إيراني بتجميد برنامجها النووي، تصل إيران إلى نوع من السيطرة على العراق، و بهذا تحقق جزءا من حلمها التأريخي؟!

بقلم خالد حسن

مواد ذات علاقة

العراق بعد مقتل الحكيم

الموت الأخير لزعيم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق آية الله محمد باقر الحكيم وإن بدا أنه علامة فارقة في واقع الإضطراب الذي يعيشه العراق منذ سقوط نظام صدام، إلا أنه في الحقيقة قد يساعد الولايات المتحدة وإيران على دفع علاقاتهما بشكل قوي. ويفتح الباب على بعض النوبات المثيرة التي قد تساعد على تثبيت الموقع الأمريكي في إيران. ومن المحتمل أن يؤدي إلى إعادة رسم الخرائط الجغرافية السياسية للمنطقة بشطل مثير، تشبه إلى حد ما التنسيق الصيني الأمريكي ضد الإتحاد السوفيتي في السبعينات.

لفهم ما يجري، من المهم ملاحظة سمتين بارزتين في قضية الحكيم. أولا، بعيدا عن تأييده للأمريكان، انخرط الحكيم في تعاون محدود مع الولايات المتحدة، ولعل أبلغ مظاهر هذا التوجه مشاركة المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق في مجلس حكم العراق المعين من قبل أمريكا. ثانيا، عقب وفاته، أعلنت إيران فترة حداد لمدة ثلاثة أيام. الحكيم، الذي عاش في المنفى في إيران خلال معظم فترة حكم صدام حسين في بغداد، كان عنصرا مكملا في الجهاز الحاكم الشيعي، يحظى باحترام وتقدير في إيران. وبناء على هذا، يمكن القول أن تعاون الحكيم مع الولايات المتحدة له ما بعده، كما أن علاقته بالدوائر الإيرانية الحاكمة، تتجاوز من تطلق عليهم أمريكا "الإصلاحيون"، وإن ظهر أن هذين الإستنتاجين غير متوافقين، لكن في الواقع، يكشفان عن حركة متزايدة نحو التنسيق بين الولايات المتحدة وإيران. لقد أدركت الولايات المتحدة أنها لا تستطيع تهدئة الوضع في العراق بمفردها. وجاء اقتراح وزارة الخارجية، يدعو إلى إرسال قوات الأمم المتحدة - تحت القيادة الأمريكية- لفرض السيطرة على العراق، وهذا يثير ثلاثة أسئلة. الأول، لماذا تضع البلاد "العاقلة" قواتها في خطر تحت القيادة الأمريكية، لحل مشاكل أمريكا إذا كان هذا ليس من واجبها؟ الثاني، ما الذي تضيفه القوى الخارجية المساعدة (وغير متعودة على العراق كالقوات الأمريكية)، إلى الخليط من قوات التحالف الموجود في العراق؟ أخيرا، ما الثمن الذي يلزم الولايات المتحدة دفعه مقابل تعاون الأمم المتحدة.

وظهر لواشنطن أن شيعة العراق منظمين أفضل بكثير مما توقعته تقارير المخابرات الأمريكية قبل الحرب. ويرجع هذا إلى حد ما (حسب مخابر التخليل الأمريكية) إلى نوعية البناء التحتي السري المدعوم من المخابرات الإيرانية، فبعد خذلان الولايات المتحدة للإنتفاضة الشعبية في التسعينيات، أبدت واشنطن قلقها بشأن تزايد النفوذ الإيراني، إذ أن طهران كانت تستعد لليوم الذي ينهار فيه نظام صدام. وكنتيجة لهذا التنظيم الذي فاجأ المخابرات الأمريكية، فإن مختلف المنظمات الشيعية في أقاليم العراق الشيعية كانت قادرة على المحافظة على النظام وممارسة الرقابة بعد الحرب. وقد أدركت السلطات البريطانية هذا الأمر مبكرا، لذا سعت إلى نقل القوة من القوات البريطانية في البصرة إلى السيطرة المحليّة، وهو ما أثار في البداية الإستياء الأمريكي.

مبدئيا، نظرت واشنطن للمنظمات الشيعية المدعومة من قبل إيران كتهديد لسيطرتها على العراق. وافترض مسؤولون في واشنطن بأنّ انهيار الجيش العراقي يعني انهيار المقاومة السنية. وبناء على هذه الفرضية، ظنت الولايات المتحدة أن سيطرتها على المناطق السنية ستكون سهلة للغاية، خاصة وأنه كان لديها علاقات ممتازة في الأقاليم الكردية، ولكن ستواجه تحديا من إيران في الجنوب. إلا أن تطورات الأوضاع ومآلاتها عاكست الفرضيات الإستخبارية الأمريكية، حيث إن الولايات المتحدة وجدن صعوبة بالغة في المثلث السني، واندلعت حرب عصابات عنيفة في الأسابيع بالتي أعقبت غزو بغداد واستمرت إلى يومنا هذا.

ويبدو أن مفتاح المنطقة عاد إلى إيران. إيران تعاني من إشكالية جغرافية سياسية، إذ أنها تواجه تهديدا من الشمال (منطقة القوقاز)، وتهديدا من الغرب، من العراق. وتطلعت إيران إلى الدعم الخارجي، وذلك الدعم تحول إلى الهيمنة. وحلم إيران أن تكون آمنة على مستوى كل الجبهات، وهو ما لم يحدث إلا نادرا.

تشكلت بعد نهاية الحرب الباردة منطقة غير مستقرة في القوقاز، لكنها في الواقع ساعدت – حاليا- على ضمان مصالح إيران. فالقوقاز قد يتخبط في الفوضى، لكن ليس هناك قوة امبراطورية تضغط على إيران من هناك. في حين أن التهديد من قبل العراق هدأ بعد أن أطاحت الولايات المتحدة بالنظام السابق، وهذا الوضع هيأ لحالة من الأمن لإيران لم يسبق لها مثيل لإيران، واستغلتها طهران لإعادة تجهيز جيشها وتطوير ترسانتها العسكرية.

إن مصلحة إيران الحقيقية ليست فقط تحييد العراق، وإنما تحقيق قدر من الهيمنة على حكم العراق. وعراق إيراني الهيمنة له دلالتان: الأولى، التهديد الوحيد لإيران يأتي من الشمال، ويمكن لطهران أن تركز على منع ذلك التهديد، الثانية، جعل إيران القوة الإقليمية الرئيسية في الخليج. لذا، فإن وصول مجموعات شيعية مدعومة من قبل إيران إلى السلطة في العراق، يمثل انقلابا جغرافيا سياسيا بالنسبة للولايات المتحدة. وهذا نقيض ما كانت تطمح إليه الولايات المتحدة. إذ أن أحد أسباب غزو العراق، قدرة واشنطن للسيطرة على إيران وقدراتها النووية، لكن حرب العصابات في الشمال خلق حقيقة إستراتيجية جديدة لواشنطن. والقضية

في الوقت الحاضر ليست في كيفية توزيع القوة في كافة أنحاء المنطقة، ولكن في كيفية تهدئة العراق.
وقد تبنت الولايات المتحدة تمرد الشاب الساخطين في إيران. وفي الحقيقة، دعمت مخابراتها انتفاضة طلبة جامعة طهران أملا في إحداث تغيير داخلي. غير أن قوات الأمن الإيرانية سحقت التمرد بشكل سهل، ونسفت معه "الآمال" الأمريكية في إجبار التغيير داخل النظام في إيران من خلال المراهنة على الأوراق الداخلية. لذا، رأى بعض عقول الإدارة الأمريكية أنه لا مناص من تعامل واشنطن مع النظام الإيراني، خاصة أنه يحمل مفتاح للشيعة العراقيين. وتتفاوض الولايات المتحدة بشكل علني وبسرية مع إيران حول مجموعة من القضايا. وكان هناك تقدم كافٍ لإبقاء الهدوء في جنوب العراق، لكن ليس كافيا للتوصل إلى استفرار، والقضية مع إيران ما كانت طاقة نووية، بقدر ما هي ورقة مساومة مهمة بالنسبة لواشنطن. لكن كما هو الحال مع كوريا الشمالية، يدرك الزعماء الإيرانيون بأن الأسلحة النووية يُراد منها المساومة أكثر من اعتبارها حقيقة. ولمحت طهران عدة مرات بأن برنامجها النووي قابل للتفاوض بشأن الأسلحة. وأشار المسؤولون الإيرانيون أيضا قولا وعملا بأنهم مستعدون لتشجيع الشيعة العراقيين للتعاون مع الإحتلال الأمريكي. ومن الواضح، أن أمريكا تحتاج إلى مساعدة في إدارة الشأن العراقي، لكن من الجانب الآخر، الثمن الإيراني ضخم، فالهيمنة على العراق تعني سلطة هائلة في منطقة الخليج، وهو يُفزع السعودية ودول أخرى في المنطقة، ولعل هذا هو السبب في تأخير القرار الأمريكي بشأن الصفقة مع إيران.
والأمريكان اليوم ضعفاء في العراق، وهذا يفتح الباب لطهران لتتقدم خطوة إلى الأمام لعقد صفقة مع الولايات المتحدة، ويريدون أمر ما يُنجز قريبا. هذه الصفقة قد لا تتبلور. إذ لا إيران ولا السياسات الأمريكية تبتلع تحالفا علنيا بسهولة. من الناحية الأخرى، هناك سوابق عديدة من التعاون الإيراني الأمريكي على المستوى السري. وبالتأكيد، في حالة العراق سيكون تعاونا مفتوحا وواضحا جدا - تعبئة رئيسية من القوّة الشيعية في العراق نيابة عن الولايات المتحدة - بغض النظر عن الخطابات.
وتبدو في الغالب تطورات الأحداث على هذا النحو : تحصل واشنطن على مساعدة طهران في تحجيم السنة، وتحصل الولايات المتحدة على وعد إيراني بتجميد برنامجها النووي، تصل إيران إلى نوع من السيطرة على العراق، و بهذا تحقق جزءا من حلمها التأريخي؟.